١٥

العلوم الضرورية للمفسر

علمُ التفسير علمٌ شريفٌ عظيم، لأنَّ ميدانَه هو كتابُ الله، وموضوعَه هو كلامُ الله، وشرفُ العلم يكون بشرفِ موضوعه، ولا كلامَ أفضلُ من كلام الله، ولا علمَ أشرفُ من العلم بكتابِ الله وفهمه، ولا عملَ أفضلُ من تفسيرِ كتاب الله والعملِ به والدعوة إليه!

وقد أوجبَ اللهُ علينا تدبُّرَ كتابه، وفهمَ آياته.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة صٓ: ٢٩].

وقالِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧ـ٢٨].

وكان الصحابةُ يحضُّون على العلم بكتاب الله، ويحثُّون على فهمه وتفسيره والعمل به.

قالَ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: كان الرجلُ منّا إذا تعلّمَ عشرَ آياتٍ لم يجاوزهنَّ حتى يعرفَ معانيهنّ، والعملَ بهنّ!

وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه أيضاً: والذي لا إلـه غيره، ما نزلَتْ آيةٌ في كتابِ الله إلاَّ وأنا أعلمُ فيمَ نَزلتْ، وأينَ نَزَلَتْ، ولو أعلمُ مكانَ أحدٍ أعلمَ بكتابِ الله مني تَنالُه المطايا لأتيتُه!

وقال التابعيُّ مسروق: كان عبدُ الله بن مسعود يقرأُ علينا السورة، ثم يحدّثُنا فيها، ويفسّرها عامة النهار.

وقال سعيدُ بن جبير: مَنْ قرأَ القرآن ثم لم يفسّرْه كان كالأعمى.

ومع أهميّةِ علم التفسير وفضْلِه وشرفِه وعلوِّ منزلةِ صاحبه، فقد كان الصحابةُ والتابعون يحذِّرون من القول في القرآن وتفسيره بدون علم.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أيُّ أرضٍ تُقلُّني، وأي سماءٍ تُظلُّني، إذا قلتُ في القرآن بما لا أعلم!

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: مَن تكلّم في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار!

وقالَ عبيدُ بن عمير: لقد أدركتُ فقهاءَ المدينة، وإنهم ليغلِّظون القولَ في التفسير: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع مولى ابن عمر.

وقال يحيى بنُ سعيد: سمعتُ رجلاً يسألُ سعيدَ بن المسيب عن آيةٍ من كتابِ الله؟ فقال: لا أقولُ في القرآنِ شيئاً.

وقال محمدُ بن سيرين: سألتُ عبيدةَ السليماني عن آية؟ فقال لي: عليك بالسَّداد، فقد ذهب الذين علموا فيم أُنزلَ القرآن.

وقالَ ابنُ أبي مليكة: سُئِلَ ابنُ عباس عن آية، لو سُئِلَ عنها بعضُكم لقال فيها، فأبى أن يقولَ فيها.

وجاءَ طَلْقُ بن حَبيب إلى جُنْدُبِ بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال له: أُحَرِّجُ عليك - أي: أُقسمُ عليك بالقرآن - إنْ كنتَ مسلماً لما قمتَ عني!

وقال عامرُ الشعبي: واللهِ ما من آيةٍ إلاّ وقد سألتُ عنها، ولكنها الروايةُ عن الله[1].

وهذه الأقوالُ التحذيريةُ محمولةٌ على ذَمِّ مَنْ قال في التفسيرِ بدون علم، أما

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في تهذيبنا لتفسير الطبري: ١/ ٤١ - ٤٦.

إذا كان المفسّرُ محقّقاً للشروطِ المطلوبة، محصّلاً للعلوم الضرورية كلامُه في التفسيرِ علمياً موضوعياً فهذا مأجورٌ على ما يقومُ به، محمد ما يفعلُه.

ومن المعلوم أنَّ كلَّ مَنْ أرادَ أن يقولَ في علمٍ من العلوم فلابدّ أنْ يكونَ عالماً به، دارساً لأصوله، متمكّناً من مباحثِه ومسائله، فإذا لم يكن محقّقاً لذلك كان كلامُه مرفوضاً مردوداً، وكان عملُه منكراً مذموماً، وكانت أخطاؤُه عديدة، يشملُ هذا كلَّ العلومِ الإسلامية والأدبية والتاريخية والإنسانية والمادية!

فإذا كان هذا ضرورياً في العلوم البشرية، فهو أكثرُ ضرورةً وأهميةً لمن أرادَ تفسيرَ وتأويلَ القرآنِ الكريم، لأنه يخوض في كتابِ الله، ويروي عن الله!

إنَّ العلومَ الضروريةَ التي يحتاجُها المفسر، والتي لابدَّ أنْ يكونَ مُلِمّاً بها، هي:

١ ـ العلم بالقرآن:

على مَنْ أرادَ تفسيرَ القرآن أنْ يكونَ عالماً به، يكثرُ من تلاوته ـ بأنْ يقرأَ كلَّ يومٍ جزءاً منه على الأقل ـ ويتقنُ أحكامَ ترتيله، ويَعرفُ سياقَ وموضوعاتِ كلِّ سورة منه، ويتصوَّرُ شخصيةَ كلِّ سورة وخطوطَها واتجاهاتِها وحقائقها، ويستحضرُ في ذهنه المواضعَ المتفرقةَ في القرآن عن الموضوعِ الواحد!

إنَّ مَن أمضىٰ مع القرآن سنواتٍ عديدةً من عمره، تلاوةً وتدبّراً وفقهاً وفهماً، يكونُ عالماً بالقرآن (معجوناً) به ـ إذا جازَ التعبير ـ مؤهَّلاً لتفسيره!!

٢ ـ العلم بالسنّة:

السنّةُ مرتبطةٌ بالقرآن ارتباطاً وثيقاً، ولابدّ لكلِّ مفسرٍ منْ أن يكونَ عالماً بالسنةِ النبوية، والحديثِ الشريف، بأنْ يطلعَ على كتابٍ في علمِ مصطلح الحديث، وعلى كتابٍ في أصولِ تخريجِ الحديث وأحوال الرجال، وأنْ يطلعَ على أمهاتِ كتب الحديث من الصحاحِ والسنن والمسانيد، وأنْ تكونَ في مكتبته، وأنْ يُحسنَ التعاملَ معها.

من الكتبِ المناسبة في هذا الموضوع: أصولُ الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب، وأصولُ التخريج ودراسةُ الأسانيد للدكتور محمود الطحان، وصحيحُ الجامع الصغير لمحمد ناصر الدين الألباني، وصحيحُ البخاري - أجودُ طبعاته طبعة دار الأرقم في لبنان في مجلدٍ واحد مفهرس - وصحيحُ مسلم بعنايةِ محمد فؤاد عبد الباقي، وصحيح الكتب الأربعة: صحيح سنن أبي داود، وصحيح سنن النسائي، وصحيح سنن الترمذي، وصحيح سنن ابن ماجه، وهي لمحمد ناصر الدين الألباني.

٣- العلمُ بالسيرةِ وحياة الصحابة:

السيرةُ النبويةُ تفسيرٌ عمليٌّ من الرسول ﷺ للقرآن، لأنه ﷺ كان خُلُقُهُ القرآن، وكانت حياةُ الصحابةِ حركةً عمليةً منهم بالقرآن، فلابدَّ لمفسرِ القرآن منْ أنْ يكونَ عالماً بالسيرة وحياة الصحابة.

ومن الكتبِ المناسبة في السيرة: صحيحُ السيرة النبوية للشيخ إبراهيم محمد العلي، وحياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوي.

٤- العلم بتاريخ القرآن:

أنْ يعلمَ المفسرُ الموضوعاتِ والمباحثَ والمسائلَ المتعلقةَ بتاريخ القرآن، من حيثُ نزولُ جبريل على رسول الله ﷺ، وصور الوحي ومعانيه وحالاته، والمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والأحرف السبعة، وأسباب النزول.

وأنْ يعلمَ مراحلَ وكيفيةَ جمع القرآن وحفظِه وتوثيقِه، زمنَ رسول الله ﷺ، وزمن الصدِّيق وعثمان رضي الله عنهما، ومزايا المصحف العثماني الإمامِ على المصاحف حتى قيام الساعة.

هذه المباحثُ والموضوعاتُ متوفرةٌ في كتب علوم القرآن، ومن أشهرِ وأجودِ الكتب السابقة في ذلك كتاب (البرهان في علوم القرآن) للزركشي، و(الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي.

ومن أجودِ الكتب المعاصرة في ذلك: (علوم القرآن) للدكتور عدنان زرزور، و(إتقان البرهان في علوم القرآن) للدكتور فضل عباس.

ومن أجودِ الكتب في النسخ: كتاب (الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه) لمكي بن أبي طالب القيسي.

ومن أجودِ الكتب في أسباب النزول: كتاب (أسباب النزول) للواحدي النيسابوري على مالَنا عليه من تحفُّظ.

٥ ـ العلم بقواعد تفسير القرآن:

على المفسرِ أنْ يكونَ عالماً بأصولِ فهمِ القرآن، وقواعدِ تدبّرِه وتفسيره، لأنَّ تدبُّرَ القرآنِ وتفسيرَه علمٌ شريفٌ أصيل، له قواعدُ ومبادئ وأسس، وله ضوابط وشروط.

فإذا لم يطَّلع المفسرُ على قواعدِ فهمِ القرآنِ وأصولِ تفسيره، أخطأَ في نظرِه له وحديثِه عنه، واستنباطاته منه.

ومن أجودِ الكتب التي تحدّثَتْ عن قواعدِ تدبرِ القرآن وتفسيره: (القواعد الحسان في تفسير القرآن) لعبد الرحمن بن ناصر بن سعدى، و(قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ) لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، و(قواعد التفسير) لخالد بن عثمان السبت، والأخير أجودُ الكتبِ الثلاثة!

٦ ـ العلم باللغة العربية:

اللغةُ العربية لغةُ القرآن، وهي لغةٌ جميلةٌ شاعرة، تقومُ على أسسٍ في الاشتقاق والتصريف والمعنى.

فلا بدّ للمفسرِ منْ أنْ يكونَ عالماً بهذه اللغةِ وفقهها واشتقاقها وتصريفها، ومطَّلعاً على أصول كلماتها، وجذورِ ألفاظها، ودارساً في أشهرِ كتبِ (المعاجم) التي تخصصت في هذا.

وكتبُ المعاجم الأساسية في هذا المجال هي: (معجم مقاييس اللغة)

لأحمد بن فارس بن زكريا، و(مفردات ألفاظ القرآن) للإمام الراغب الأصفهاني، و(الكليات) لأبي البقاء الكفوي، و(لسان العرب) لابن منظور، و(المعجم الوسيط) الذي أصدرَهُ مجمعُ اللغةِ العربية في القاهرة.

٧ـ العلم بالنحو والصرف:

العلمُ بالنحوِ والإعرابِ ضروريٌّ لحسنِ الكلام، لأن معنى الكلام يتغيرُ ويختلفُ باختلافِ وجوهِ الإعراب، لأنَّ الإعرابَ تابعٌ للمعنى. وكذلك العلمُ بالصرفِ وصيغِ بناءِ الكلمة وتصريفاتها.

إن العلمَ بالنحوِ والصرف يقودُ المفسرَ إلى حسنِ فهمِ الجملة القرآنية، من حيث بناءُ كلماتها الصرفي، ومن حيثُ موقعُ كلماتها من الإعراب، وهذا يقودُه إلى حسنِ فهمِ القرآنِ وتفسيره.

ومن الكتب المناسبة في ذلك: (التطبيق النحوي) و(التطبيق الصرفي) كلاهما للدكتور عبده الراجحي، ومن أشهرِ الكتب النحوية (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) لابن هشام الأنصاري، و(النحو الوافي) لعباس حسن.

ومن الكتبِ الجيدةِ التي اهتمّتْ بإعرابِ القرآن: (الدر المصون في علوم الكتاب المكنون) للسمين الحلبي، و(الجدول في إعراب القرآن) لمحمود صافي.

٨ـ العلم بالبلاغة العربية:

معلومٌ أنَّ علومَ البلاغة في اصطلاح البلاغيين ثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع. وعلى المفسّرِ أنْ يكونَ مطّلعاً على هذه العلومِ البلاغية الثلاثة، عارفاً بمباحثها وموضوعاتها ومسائلها.

وذلك ليتعرّفَ على ألوانِ وآفاقِ البلاغة القرآنية المعجزة، ويتعرف على موضوعات علمِ المعاني القرآني، وأساليبِ البيان في القرآن، والبديعِ على ضوء القرآن، والتصوير الفني في القرآن، وخصائص التعبير القرآني.

ومن الكتب المناسبة في ذلك: (التطبيق البلاغي) للدكتور عبده الراجحي، و(البلاغة العربية) لعبد الرحمن حبنكة الميداني، و(البلاغة فنونها وأفنانها) للدكتور فضل عباس.

ومن الكتب البلاغية القرآنية: (البيان على ضوء أساليب القرآن) للدكتور عبد الفتاح لاشين، و(خصائص التعبير القرآني) للدكتور عبد العظيم المطعني، و(التعبير القرآني) للدكتور فاضل السامرائي.

٩ ـ العلم بالقراءات القرآنية:

لابدّ للمفسر من أنْ يتقنَ تلاوةَ القرآن، مراعياً أحكامَ الترتيلِ المعروفة، بأنْ يتلقى أحكامَ الترتيل وتطبيقَها من إمامٍ متقن للترتيل، ومعلومٌ أنَّ الترتيلَ لا يؤخَذُ إلا بالتلقّي المباشر من عالم متقن.

وبعدَ إتقانِ المفسرِ لأحكام ترتيل القرآن لابدّ أن يكونَ عالماً بالقراءات القرآنية الصحيحة.

والقراءاتُ الصحيحةُ عشرُ قراءات، هي: قراءة عاصم، وقراءة نافع، وقراءة ابن كثير، وقراءة ابن عامر، وقراءة أبي عمرو، وقراءة حمزة، وقراءة الكسائي، وقراءة أبي جعفر، وقراءة يعقوب، وقراءة خلف.

والقراءاتُ الشاذّةُ أربعُ قراءات، هي: قراءة الحسن البصري، وقراءة اليزيدي، وقراءة الأعمش، وقراءة ابن محيصن.

ومن أجودِ الكتبِ في توجيه القراءات السبع كتاب (حجة القراءات) لعبد الرحمن بن زنجلة. وفي توجيه القراءات العشر كتاب (البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة) لعبد الفتاح القاضي. وفي توجيه القراءات الصحيحة والشاذة كتاب (إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر) للبنا الدمياطي.

١٠ ـ العلم بالعقيدة الإسلامية:

لابدَّ للمفسّر من أنْ يكونَ عالماً بالعقيدةِ الإسلامية وأسسها ومباحثها،

وموضوعاتِ الإيمان وقضاياه ومسائله، لأنها هي أساسُ قبولِ الأعمال عند الله.

وعليه أنْ يأخذَ مباحثَ العقيدة ومسائل الإيمان من آياتِ القرآن، والأحاديث الصحيحة لرسول الله ﷺ، وأن يلتزمَ بفهمِ الصحابة والتابعين للآيات والأحاديث. وعليه أنْ لا يتأثرَ باختلافِ رجال الفِرَق المختلفة في مسائل العقيدة وفرعياتها، بل يحرصُ على أنْ يفهمَ عقيدتَهُ وإيمانَه قبل حدوث الخلاف المذهبي والكلامي بين فرق المسلمين المختلفة.

ومن أنسبِ كتبِ العقيدةِ: (شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز الحنفي، طبعة شعيب الأرناؤوط، و(الإيمان) للدكتور محمد نعيم ياسين، و(منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام) لجمعة أمين عبد العزيز، و(ركائز الإيمان) لمحمد قطب، و(خصائص التصوير الإسلامي ومقوماته) لسيد قطب.

١١ ـ العلم بأصول الفقه:

أصولُ الفقه يبينُ كيفَ تُستنبَطُ الأحكامُ الشرعية من النصوص، ويذكرُ القواعدَ والأسس في ذلك، وقواعدُ أصولِ الفقه مرتبطةٌ بقواعدِ التفسير ارتباطاً وثيقاً، ومباحثُ أصولِ الفقه مرتبطةٌ بمباحثِ أصولِ التأويل، والأسلوبُ القرآنيُّ فيه الإجمالُ والتبيين، والعمومُ والخصوص، والإطلاقُ والتقييد، ودلالةُ النص وإشارته، ودلالةُ الأمر والنهي. وهذه مباحثُ وموضوعاتُ أصول الفقه.

ومن الكتبِ المناسبةِ في أصولِ الفقه: أصول الفقه لمحمد أبو زهرة، وأصول الفقه لعبد الوهاب خلاف، وأصول الفقه للدكتور عبد الكريم زيدان، ولعلَّ الأخيرَ أجودُ كتبِ أصول الفقه المعاصرة.

١٢ ـ العلم بتاريخ العرب الجاهلي:

العلمُ بأحوالِ العرب قبل الإسلام ضروري، لأنَّ القرآنَ أشار إلى مختلفِ مظاهر حياتهم، وبيَّنَ ما في حياتهم من أخطاءٍ وانحرافات، ولمَّا أسلموا انتقلوا نقلةً بعيدة، من عالم الانحدارِ الجاهلي إلى عالم السموِّ الإيماني.

ولابدَّ للمفسِّرِ أنْ يتعرَّف على معالمِ حياةِ العرب في الجاهلية ليعرفَ الجوَّ

الذي تنزّل فيه القرآن، والموضوعَ الذي تتحدّثُ عنه آياته، ويقفَ على نعمةِ الله على هذه الأمة في إرسالِ الرسول ﷺ إليها، وإنزالِ القرآن عليه لتربيتها وبعثها.

يتعرّفُ على حياةِ العرب الدينية القائمةِ على الشركِ بالله وعبادة الأصنام والأوثان، وعلى حياتهم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية.

ومن الكتب المناسبة في ذلك: (المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام) للدكتور جواد علي، وتاريخ الطبري وتاريخ ابن كثير، القسم الذي يتحدّث عن ذلك.

١٣ ـ العلم بتاريخ السابقين:

تحدّثُ القرآنُ عن أممٍ سابقة، سادَتْ ثم بادَتْ، وعن أقوامٍ بعثَ اللهُ لهم رسلاً فكذّبوهم فأهلكهم، كقومِ نوح وعاد وثمود، وكقومِ فرعون، واليهودِ الذين حاربوا عيسى عليه الصلاة والسلام، وغير ذلك.

وعلى المفسّرِ أنْ يتعرّفَ على تاريخِ الأمم السابقة كالفراعنة والآشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان، ومظاهرِ حياتهم، وأنْ يتعرّفَ أكثر على أحوال اليهود والنصارى المختلفة، ومظاهرِ الانحراف عندهم، وذلك ليُحسنَ فهمَ الآياتِ التي تتحدّثُ عنهم، وتعالج انحرافاتهم، وتقيمُ الحجةَ عليهم.

ومن الكتبِ المناسبةِ في ذلك: تاريخ الطبري، وتاريخ ابن كثير - مع الانتباه لما فيهما من روايات غير ثابتة أحياناً -.

١٤ ـ العلم بالمذاهب الفكرية المختلفة:

على المفسّرِ أن يكونَ على علمٍ بالمذاهبِ الفكرية السابقة الكافرة، التي قامتْ على الكفرِ بالله والشركِ به، كالفكر اليوناني، والفكر الروماني، والفكر الفارسي، والفكر الهندوسي.

وأن يكونَ على علمٍ بالمذاهبِ الفكريةِ الجاهلية المعاصرة، التي تنتشرُ في العالم المعاصر، مثل: الشيوعية، والرأسمالية، والوجودية، والديمقراطية،

والاشتراكية، والإنسانية. ليعرفَ كيف يواجهُها بحقائق القرآن.

وأنْ يكونَ على علمٍ بأحوالِ العالم المعاصر، العالمِ الجاهلي بشقّيه: العالمِ الغربي، والعالمِ الشرقي، وأنْ يقفَ على مظاهر الانحراف المختلفةِ في هذا العالم: الانحراف الفكري، والسلوكي، والسياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والعلمي، والأخلاقي، والمادي. وذلك ليحسنَ فهمَ الآياتِ التي تتحدّثُ عن الانحرافات، وتنزيلَها على الواقع المعاصر.

ومن الكتب المناسبة في ذلك: (كواشف زيوف) لعبد الرحمن حبنكة، و(مذاهب فكرية معاصرة) و(واقعنا المعاصر) و(جاهلية القرن العشرين) و(رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر) أربعتُها لمحمد قطب.

١٥ ـ الثقافة العلمية المعاصرة:

على المفسّرِ أنْ يلمَّ بالعلومِ الحديثة، وأن يكونَ مثقفاً ثقافةً علميةً منوّعةً شاملة، وذلك ليعرفَ المعاني التي تتحدّثُ عنها الآياتُ العلمية وغيرها، ويوسّعَ معاني وأبعادَ هذه الآيات.

عليه أنْ يكونَ مطّلعاً على علوم: الفلك، والطب، والاقتصاد، والاجتماع، والسياسة، والزراعة، والتجارة، وعلم النفس، والإعلام، والاتصال.. وأنظمة الحكم، ومناهج الفكر، ومظاهر السلوك.. ومتابعاً للأحداثِ السياسية والفكرية والاجتماعية، من خلالِ الصحفِ والمجلات والإذاعات والفضائيات. وكلما ازدادَ ثقافةً بهذه الجوانب ازدادَ إدراكاً للأبعادِ العلمية للآيات القرآنية[1]!

* * *

(١) ذكر بعض هذه العلوم: السيوطي في الإتقان: ٢/ ١٢٠٩ ـ ١٢١٢؛ والدكتور الذهبي في التفسير والمفسرون: ١/ ٢٦٥ ـ ٢٧٣.

المبحث الثاني

صفات وآداب المفسّر

كان الكلامُ في المبحثِ السابق عن العلومِ الضروريةِ للمفسر، وسجَّلْنا خمسة عشر علماً منها.

وهذه العلومُ يمكنُ تحصيلُها بالكسبِ والدراسةِ والاطّلاعِ على الكتبِ والمراجع.

ولكنَّ هذه العلومَ وحدها لا تكفي، فلا بدَّ للمفسّرِ من أنْ يتصفَ بصفاتٍ أساسية، وتظهرَ عليه آدابٌ ضرورية، ويتخلّق بأخلاقٍ ربانية، وأنْ تتحقق فيه شروطٌ لا بدّ منها.

هذه الصفاتُ والآدابُ والأخلاقُ ضرورية لأنه يتعامل مع كتابِ الله العظيم، الكتابِ التربويِّ المعجز، ولابدّ أن تتحقق فيه حقائقُ القرآنِ التربويةِ الدعوية، وأنْ يتخلّق هو بأخلاقِ القرآن، التي يدعو إليها.

أوردَ الإمامُ السيوطي في (الإتقان) فقرةً من كلامِ (أبي طالب الطبري) فيها بعضُ صفاتِ المفسّر وآدابه: «قالَ الإمامُ أبو طالب الطبريُّ في أوائلِ تفسيره: القولُ في آداب المفسر:

اعلم أنَّ مِنْ شرطِه: صحةُ الاعتقاد، ولزومُ سنة الدين.

[redacted]

أحدهم يصنفُ الكتاب في التفسير، ومقصودُه منه الإيقاع [الإفساد] خلال المساكين، ليصدَّهم عن اتّباع السلف، ولزوم طريق الهدى . . .

. . . ومن شرطه صحةُ القصدِ فيما يقول، ليَلقى التسديد، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وإنما يخلصُ له القصدُ إذا زهدَ في الدنيا، لأنه إذا رغبَ فيها لم يُؤمَنْ أن يتوسَّلَ به إلى غرضٍ يصدُّه عن صوابِ قصدِه، ويُفسدُ عليه صحة عمله»[1].

ويمكنُ أن نستخرجَ من كلامِ أبي طالب الطبري الصفاتِ والآدابَ التالية:

١ ـ أنْ يكونَ المفسرُ صحيحَ العقيدة، وهو لن يكون كذلك إلاَّ إذا أخذَ عقيدتَه من القرآن والسنة.

٢ ـ أنْ يكونَ ملتزماً بسنةِ رسول الله ﷺ، مقتدياً به، سائراً على طريق الصحابة والتابعين والسلف الصالح.

٣ ـ أنْ يكونَ سليمَ التصور، صائبَ الفكر، من أهلِ السنّة السائرين على طريق رسول الله ﷺ.

٤ ـ أنْ لا يكونَ متأثراً بأفكارِ الفرق والطوائف التي خرجتْ عن فهمِ أهل السنّة والسلف الصالح، كالقدرية والرافضة، والخوارج والمعتزلة، والشيعة والجهمية.

٥ ـ أنْ يكونَ عدلاً ثقةً عند المسلمين، مشهوداً له بالعدالة والعلمِ والالتزام، مُؤتَمَناً في دينه وعلمه وعمله.

٦ ـ أنْ لا يكونَ صاحبَ هوى أو غرضٍ خبيث، وأن لا يكونَ صاحبَ بدعة [illegible] أو تتفقَ مع بدعته.

٧ ـ أن يكونَ مخلصاً لله في عمله، يتوجَّهُ به إليه، ويبتغي به الأجرَ منه وحده، ليمنحهُ اللهُ التوفيقَ والسداد، ويفتحَ عليه فهمَ كتابه. وأنْ لا يكونَ بعملِه

---

(١) الإتقان للسيوطي: ٢/١١٩٨ ـ ١١٩٩ باختصار.

مرائياً مفتخراً، يريدُ أنْ يرى الناسُ علْمَه.

٨ ـ أنْ يكونَ زاهداً في الدنيا، عازفاً عنها، غيرَ متهالكٍ عليها، ولا منافسٍ لأصحابها، ولا راغبٍ في زهرتها وحطامها ووظائفها ومراكزها.

٩ ـ أنْ يكونَ طالباً للآخرة، راغباً فيها، ناظراً إليها، فهذه الرغبةُ في الآخرة تُعينُه على حسنِ فهم القرآن، الذي يدعـوهُ إلى الحرصِ على الآخرة، والسـعي إليها، والتنافس عليها.

وتحدّثَ السيوطي في موضعٍ آخر من (الإتقان) عن صفاتٍ وآداب أخرى للمفسر:

(علمُ الموهبـة، وهو علمٌ يورثُه اللهُ لمن عملَ بما علم، وإليه الإشـارةُ بقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بما عَلِم، ورَّثَهُ اللهُ علْمِ ما لمْ يعلم»[1].

... ولعلّكَ تستشـكلُ علمَ الموهبة، وتقول: هذا شيءٌ ليسَ في قدرةِ الإنسان! وليس الأمرُ كما ظننتَ من الإشكال، وطريقُ تحصيلِه ارتكابُ الأسبابِ الموجبةِ له، من العملِ والزهد.

قال في البرهان: اعلم أنه لا يحصلُ للناظرِ فهمُ معاني الوحي، ولا تظهرُ له أسرارُه، وفي قلبه بدعةٌ أو كِبْرٌ أو هوى، أو حبُّ الدنيا، أو هو مُصِرٌّ على ذَنْب، أو غيرُ متحققٍ بالإيمان، أو ضعيفُ التحقيق، أو يعتمدُ على قولِ مفسرٍ ليس عنده علم، أو راجعٌ إلى معقوله، وهذه كلُّها حجبٌ وموانعُ بعضُها آكَدُ من بعض!

قلت: [القائل السـيوطي معقّبـاً على كلام صاحب البرهـان] وفي هذا المعنى قولـه تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قالَ سفيان بن عيينة: المعنى: أَنْزَعُ عنهم فَهْمَ القرآن)[2].

---

(١) ذكر صاحب (كشف الخفاء) أنه أخرجه أبو نعيم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٢١٢.

ونستخرجُ من هذه الفقرةِ الصفات والآدابَ التالية ونضيفها إلى الآداب والصفات السابقة:

١٠ ـ العملُ بأحكام القرآن وتوجيهاته، والتخلُّقُ بأخلاقه وإرشاداته. فهذا العمل يزيدُ علمَه بكتاب الله، ويعينه على استخراجِ أحكامه.

١١ ـ الابتعادُ عن الذنوب والمعاصي والمحرَّمات والمنكرات، التي تُبْعدُه عن الله، وتحجبُ عنه فهمَ كتابِ الله.

١٢ ـ الحرصُ على موهبته التي وهبه الله إياها، وتوجيهُها إلى القرآنِ الكريم، لتدبّرِه وفهمِه، واستخراجِ دلالاتِه وأحكامه، وعدمُ تضييعِ هذه الموهبةِ فيما لا نفعَ فيه، وعدمُ تبديدِها في الأمور غير المناسبة.

١٣ ـ الحذرُ من الموانعِ التي تحولُ بينه وبين القرآن، والحجبِ التي تحجبُ عنه حقائقَ القرآن، كالكبر والهوى والرياء وحب الدنيا.

١٤ ـ الفطنةُ والذكاءُ واليقظةُ والانتباه، والوعيُ الدائم، وحضورُ الذهن والعقل، والحيويةُ والإيجابية، ونفاذُ النظرة، والالتفاتُ للَّمحةِ والإشارة، فهذا كلّه ضروريٌّ له للتعاملِ مع القرآن وحُسن فهمه.

ونضيفُ إلى الفقرتين السابقتين عباراتٍ رائعةً رائدة لسيد قطب، تُضيفُ صفاتٍ وآداباً أخرى للمفسّر، وتحددُ له الطريقَ العمليَّ الإيجابيَّ لحسنِ فهمِ القرآن:

يقول عن معنى الحياة في (جو القرآن) ومعايشته: «الحياةُ في جَوِّ القرآن لا تعني مدارسةَ القرآن وقراءتَه والاطّلاعَ على علومه.. إنَّ هذا ليس (جوَّ القرآن) الذي نعنيه. إنَّ الذي نعنيه بالحياةِ في جوِّ القرآن هو: أنْ يعيشَ الإنسانُ في جوٍّ، وفي ظروف، وفي حركة، وفي معاناة، وفي صراع، وفي اهتمامات.. كالتي كان يتنزّلُ فيها هذا القرآن، أنْ يعيشَ الإنسانُ في مواجهةِ هذه الجاهلية التي تعمُّ وجْهَ الأرض اليوم، وفي قلبه وفي همِّه وفي حركته أنْ (يُنشئ) الإسلامَ في نفسه، وفي نفوس الناس، وفي حياتِه وفي حياة الناس.